تجاوباً واعياً ، فعند آية التسبيح نُسبِّح ، وعند آية الحمد نحمد الله ، وعند آية الدعاء نقول : آمين ، هذه مواجيد انفعالية لسماع القرآن والتجاوب معه ، لا أنْ نسمعه أو نهذه كهذ[1] الشِّعْر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ أمَّنْ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] هذا استفهام آخر ، وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد أن كتب الهزيمة على الكافرين والنصر للمؤمنين أراد أنْ يُربِّب في النفس الإيمان بالله ، وأن تأخذ من نصر الله تعالى للمؤمنين خميرة إيمانية ، ومواجيد جديدة تظل شحنة قوية تدفعهم بحيث يكونون هم أنفسهم على استعداد للتصدى لأعداء الدعوة والمناهضين لها .

يقول سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل]

إذن : المسألة لا تقف عند معركة انتصر فيها المؤمنون على الكافرين ، فهناك فى خلق الله ما هو أعظم من ذلك ، فلو سألتهم : مَنْ خلق السموات والأرض يقولون : الله ولئن سألتهم : مَنْ خلقهم يقولون : الله ، فهذه مسائل لا يستطيعون إنكارها ، فكأن الحق –

---

(١) الهذ (بالذال) : سرعة القراءة . وفى حديث ابن عباس قال له رجل : قرأت المفصَّل الليلة، فقال : أهذاً كهذ الشعر ؟ أراد أتهذ القرآن هذاً فتسرع فيه كما تسرع فى قراءة الشعر . [لسان العرب ـ مادة : هذذ] .

تبارك وتعالى - يقول لهم : آلله الذى خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء .. أم ما تشركون ؟

وما دام أن الله تعالى ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه سبحانه ، ولم يَقُمْ لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتتْ له سبحانه إلى أنْ يدَّعيها غيره ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. (٦٠) ﴾ [النمل] فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق فأين هو : إما أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، أو دَرَى بها وجَبُن عن المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح إلهاً ، وإلا فليأتِ هو الآخر بخَلْق ومعجزات أعظم مما رأينا .

فإذا قال الله تعالى أنا الله ، ولا إله غيرى ، والخَلْق كله بسمائه وأرضه صنعتى ، ولم يوجد معارض ، فقد ثبتت له القضية ؛ لذلك يقول سبحانه :
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فقضية الوحدانية شهد الله أولاً بها لنفسه ، ثم شهد بها الملائكة وأولو العلم من الخَلْق .

ويقول سبحانه فى تأكيد هذا المعنى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

أى : لاجتمع هؤلاء الآلهة ، وثاروا على الإله الذى أخذ منهم مُلْكهم ، وادعاه لنفسه ، أو لذهبوا إليه ليتقرَّبوا منه ويتودَّدوا إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً (٦٠) ﴾ [النمل] السماء : كلُّ ما علاك فأظلَّك ، والماء معروف أنه ينزل من السحاب وهو مما علانا ، أو أن الإنزال يعنى إرادة الكون ، وإرادة الكون فى كل كائن تكون من السماء ، ألاَ ترى قوله تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (٢٥) ﴾ [الحديد]

وقوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]
ومعلوم أن الحديد يأتى من الأرض ، لكن إرادة كونه تأتى من السماء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ..(٦٠) ﴾[النمل] للماء فوائد كثيرة فى حياتنا ، بل هو قوام الحياة ؛ لذلك اقتصرتْ الآية على ذكْر الحدائق ؛ لأنها قوام حياة الإنسان فى الأكل والشرب .

فإنْ قُلْتَ : نحن نعتبر الآن الحدائق الجميلة من باب الكماليات ، وليس بها مُقوِّمات حياتنا . نقول : نعم هى كذلك الآن ، لكن فى الماضى كانوا يسمون كل أرض زراعية محوطة بسور : حديقة ، أو حائط .

وقال ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النمل] مع أنك لو نظرتَ إلى القمح مثلاً وهو عَصَب القوت لوجدته أقل جمالاً من الورد والياسمين والفُل مثلاً ، وكأن ربك - عز وجل - يقول لك : لقد تكفلتُ لك بالكماليات وبالجماليات ، فمن باب أَوْلَى أوفر لك الضروريات .

والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يرتقى بذوْق عباده وبمشاعرهم ، واقرأ مثلاً قوله تعالى :﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] ..(٩٩) ﴾ [الأنعام] يعنى : قبل أن تأكل من هذه الثمار تأمل فى جمالها ومنظرها البديع ، وكأنها دعوة للرقى بالذوق العام والتأمل فى بديع صُنْع الله .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لك النظر إلى كل الثمار لتشاهد جمالها ، ولم يُبح لك الأكل إلاّ مما تملك ؟ لذلك قال : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ ..(٩٩) ﴾ [الأنعام] فإنْ لم تكونوا تملكونه ، فكفاكم التمتُّع بالنظر إليه .

ومن هذا الارتقاء الجمالى قوله تعالى بعد أنْ حدَّثنا عن الضروريات فى الأنعام :﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل]

(١) أينع الثمر يينع : أدرك ونضج وحان قطافه . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

وقال :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ..(٨) ﴾ [النحل]

فأعطانا ربنا - عز وجل - ضروريات الحياة ، وأعطانا كمالياتها وجمالياتها . وتأمل دقة الأسلوب في ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ..(٦٠) ﴾ [النمل] فالضمير في ﴿ خَلَقَ ﴾ ضمير الغائب (هو) يعود على الله عز وجل ، وكذلك في (وَأَنزَلَ) أما في (فَأَنبَتْنَا) فقد عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدال على التعظيم ، فلماذا ؟

قالوا : لأن نعمَ الله فيها أشياء لا دخْل للإنسان فيها كالخَلْق وإنزال المطر ، ومثل هذه المسائل لا شبهةَ لاشتراك الإنسان فيها ، وهناك أشياء للإنسان دَخْلٌ فيها كالزرع والإنبات ، فهو الذي يحرث ويزرع ويسقى .. الخ مما يُوحى بأن الإنسان هو الذي يُنبت النبات ، فأراد سبحانه أنْ يُزيل هذا التوهم ، فنسب الإنبات صراحة إليه - عز وجل - ليزيل هذه الشبهة .

وربك - سبحانه وتعالى - يحترم فعلك ، ويذكر لك سَعْيك ، فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] نعم لك عمل وسعى في هذه المسألة ، لكنك استخدمتَ الأرض المخلوقة لله ، وآلة الحديد المخلوقة لله ، والبذور المخلوقة لله ، والماء المخلوق لله ، أما مسألة الإنبات نفسها فلا دَخْلَ لك بها ، فلا تَقُلْ زرعت ؛ لأننا نحن الزارعون حقيقة ، لكن قُلْ : حرثتُ وسقيتُ .

لذلك تجد الرد في آخر الآية نافياً لأىِّ شبهة في أن لك دَخْلاً في مسألة الزرع :﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] وأكّد الفعل بلام التوكيد لينفي هذه الشبهة .

على خلاف الكلام عن الماء ، حيث لا شبهة لك فيه ، فيأتى نفس الفعل ، لكن بدون لام التوكيد :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ

أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[1] فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة]

ومعنى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] العدل معلوم أنه صفة مدح فساعة تسمع ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] قد تظن أنها صفة طيبة فيهم ، لكن لابُدَّ في مثل هذا اللفظ من تدقيق ؛ لأنه يحمل معاني كثيرة . نقول : عدلَ في كذا يعني : أنصف ، وعدل إلى كذا يعني : مال إليه ، وعدل عن كذا : يعني : تركه وانصرف عنه ، وعدل بكذا ، يعني : سوَّى .

فالمعنى هنا ﴿ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] عنه ، ويا ليتهم يعدلون عنه فحسب ، إنما يعدلون عنه إلى غيره ، ويسوِّون به غيره ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام]

أي : يسوُّونه سبحانه بغيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

لما تكلم الحق سبحانه في الآية السابقة عن السموات والأرض أتى بأشياء مشتركة بينهما ، فالسماء ينزل منها الماء ، والأرض تستقبل الماء ، وتنبت لنا الحدائق ذات البهجة .

---

(١) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أج الماء يؤج : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم ١/٧] .

أما في هذه الآية ، فالكلام عن الأرض ، لذلك ذكر لنا مسائل من خصوصيات الأرض ، ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا .. (٦١) ﴾ [النمل] معنى : قراراً أي استقراراً ، حيث خلقها سبحانه على هيئة مريحة تصلح لأنْ يستقرَّ عليها الإنسان .

﴿ وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا (٦١) ﴾ [النمل] الماء ينزل من السماء وينتفع به مَنْ سقط عليه مباشرة ، أما ما ينزل على الجبال فيتجمع في الوديان وتُصنع له السدود لينتفع الناس به عند القحط ، ومن ماء المطر ما ينساب في مَجَارٍ تُسمَّى الأنهار .

وتستطيع أنْ تُفرِّق بين النهر والقناة الصناعية ، فالنهر ينساب الماء فيه من أعالي الجبال ، ومن أماكن متفرقة تتتبع المنخفضات والسهل من الأرض الذي يستطيع الماء أنْ يشقَّ مجراه فيه فتراه ملتوياً متعرجاً ، يدور حول الجبال أو الصخور ليشقَّ مجراه .

أما القناة الصناعية ، فتراها على هيئة الاستقامة ، إلا إذا اعترض طريق حفرها مثلاً أحد أصحاب النفوذ ، فيحملهم على تغيير المسار والانحراف به ليتفادى المرور بأرضه .

وتستطيع أنْ تلاحظ هذه الظاهرة إذا تبولْتَ في أرض رملية ونظرتَ إلى مجرى البول ، فتراه يسير متعرجاً حسب طبيعة الأرض التي يمرُّ بها .

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ (٦١) ﴾ [النمل] الرواسي : هي الجبال الثابتة الراسية ، وفي موضع آخر بيَّن سبحانه الحكمة من هذه الجبال فقال : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ (١٥) ﴾ [النحل]

فالحكمة من خَلْق الجبال تثبيت الأرض حتى لا تضطرب ،

ولو أنها خُلقَتْ على هيئة الثبات والاستقرار لما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : هى مخلوقة على هيئة الحركة ، ولا بُدَّ لها من مُثقِّلات .

ولا تقتصر الحكمة من خَلْق الجبال على تثبيت الأرض ، إنما لها مهمة أخرى فى قوله تعالى : ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾ [النازعات]

فكيف تكون الجبال متاعاً للإنسان وللحيوان ؟

نعم ، هى متاع ؛ لأنها مخزن مياه ، حينما ينقطع المطر نجد المياه التى تساقطت على الجبال ، إما فى الأنهار ، وإما فى الشلالات ، وخلف السدود بين الوديان ، أو فى العيون والآبار مما امتصته الأرض .

وكما أن الجبال هى مخازن للمياه ، هى أيضاً مخازن للخصوبة التى تمدُّ الأرض الزراعية عاماً بعد عام بقدر ، بحيث تستمر خصوبة الأرض ، وسبق أنْ تكلمنا عن ظاهرة التعرية التى تُفتِّت الطبقة العليا من الصخور ، فتنزل إلى الوديان مع ماء المطر ، وتختلط بالتربة الزراعية فتزيد من خصوبتها .

ولولا صلابة الجبال وتماسك صخورها لتفتتتْ فى عدة سنوات ، ولفقدنا مصدر الخصوبة بعد ذلك ، فهذه الظاهرة من علامات رحمة الله بخَلْقه ؛ لأنها تتناسب مع الزيادة السكانية بحيث كلما زاد السكان زادتْ الرقعة الخصبة الصالحة للزراعة .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك حين تتأمل وضع الجبال مع الوديان تجد أن الجبل مُثلث قاعدته إلى أسفل ، وقمته إلى أعلى ، أما الوديان فعلى عكس الجبال ، فهى مثلث قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل ، وهكذا

نرى أن كل زيادة من طَمْي الجبل والغرْين[1] الذى يتفتت منه يزيد فى مساحة الوادى ، فتزداد الرقعة الخصبةَ كل عام مع زيادة السكان .

لذلك يقول تعالى عن الجبال : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]

فجعل الجبال الرواسى هى مخازن القوت من طعام وشراب ، ولك أن تتأمل نيل مصر وواديه ، كيف تكوَّن من الطمى الذى حملتْه المياه من أعالى الجبال فى إفريقيا ، ليُكَوِّن هذه المنطقة الخصْبة فى مصر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل]

البحرين : أى العَذْب والمالح لأن الماء : منه العَذْب ، ومنه المالح ، ومن قدرته تعالى وحكمته أنْ يحجز بينهما ، وإنْ كان الماء المالح هو مصدر الماء العَذْب ، لذلك جعل الله تعالى مساحة السطح للماء المالح ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وكلما اتسع سطح الماء اتسع البَخْر الذى يكوِّن السحاب ، بحيث يسقط المطر الكافى لمعيشة أهل الأرض .

وما أجملَ قول الشاعر المادح :

أهدى لمجلسه الكريم وإنَّما ... أهدى لَهُ مَا حُزْتَ مَن نَعْمائه

كَالبَحْرِ يُمطِرهُ السَّحابُ ومَا لَهُ ... فَضْلٌ عليْه لأنَّه مِنْ مَائه

ولكى تعلم فضل الله علينا فى إنزال المطر وتوفير الماء العَذْب ،

---

(١) الغرين : الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً . وقال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جَفَّ رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

انظر إلى التكلفة والمشقة التى تعانيها لتقطير عدة سنتيمترات من الماء ، فى حين أنك لا تدرى بعملية التقطير الواسعة التى تسقى البلاد والعباد فى كل أنحاء الدنيا .

وقد مثَّلْنا لمسألة اتساع رقعة البَحْر بكوب الماء إذا أرقْتَه على الأرض ، فإنه يجفُّ فى عدة دقائق ، أمَّا لو تركت الماء فى الكوب لعدة أيام ، فإنه لا ينقص منه إلا القليل .

ومن الماء العَذْب ما سلكه الله تعالى ينابيع فى الأرض ليخرجه الإنسان إذا أعوزه الماء على السطح ، أو سلكه ينابيع فى الأرض بمعنى أن يسير العَذْب بجوار المالح ، لا يختلط أحدهما بالآخر مع ما عُرِف عن الماء من خاصية الاستطراق .

وهذه من عجائب قدرة الله الخالق ، فمنْ قَعْر البحر المالح تخرج عيون الماء العَذْب ؛ لأن لكل منهما طريقاً ومسلكاً وشعيرات يسير فيها بحيث لا يبغى أحدهما على الآخر ، كما قال تعالى :

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) ﴾ [الرحمن]

وكما أن الماء العَذْب يتسرب إلى باطن الأرض ليكوِّن الآبار والعيون ، فكذلك الماء المالح يتسرب فى باطن الأرض ليكوِّن من تفاعلاته الأحجار الكريمة ، كالمرمر ، والمعادن كالحديد والمنجنيز والجرانيت .. الخ

وبعد أن ذكر لنا هذه الآيات الخاصة بالأرض جاء بهذا الاستفهام ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. (٦٠) ﴾ [النمل] يعنى خلق هذه الأشياء ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ .. (٦١) ﴾ [النمل] والذين لا يعلمون أعلمناهم ، وقطعنا حُجَّتهم بعدم العلم .

ولو نظرنا إلى الأرض لوجدنا فيـها آيات أخرى غير أنها مُـستقرٌ وسكَنٌ ، فالأرض كثيفة ، وفيها غبرة ليست صافية البياض ؛ ذلك لأن الله تعالى يريد لها أنْ تستقبل حرارة الشـمس وضوءها ليستفيد منها النبـات ، ولو أن الأرض كـانت شفـافـة تعكس الضـوء والحرارة لمـا استفاد منها النبات ؛ لذلك نجـد بعض المشروعات تنمو فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء .

ولمـا أجرَوْا بعـض التجـارب على النبـات ، فوضـعـوه فى مكان مظلم ، ثم جعلوا ثُقْباً فى ناحيـة بحيث يدخل الضوء وجدوا أن النَّبْتة بما أودع الخالق فيـها من غريزة تتجه ناحية الضـوء لتأخذ حظها من النور والدفء ، فسبحان الذى خلق فسوّى ، والذى قدَّر فهدى .

ومن آيات الله فى خَلْق الأرض أنْ جـعـلـهـا على هيـئـة الحـركـة والدوران ، لتـأخـذ كل مناطقـها حظـها من الحـرارة ومن البـرودة ، ويتنوع فيهـا المناخ بين صيف وشتاء ، وخـريف وربيع ، إنها أدوار تتطلبها مُقوِّمات الحياة .

لذلك تجـد علماء النبـات يُقسِّمـون المناطق الزراعيـة على الأرض يقـولون : هذا حـزام القمح مـثـلاً ، وهذا حزام الـموز ، وهذا حـزام البطاطس ، فتـجد كل حزام منهـا يصلح لنوع خاص من المـزروعات يناسب سكان هذه المنطقة وبيئتها وجوّها .

لذلك نـجــد أن كل نوع من المــزروعــات فــى مكانه المـناسب لا تصيـبه الآفات ، أمّـا حين يُنقل إلى مكان غيـر مكانه ، وبيئة غـير بيئته لا بُدَّ أنْ يُصاب .

وفى الأرض خاصيـة أخرى تتعلق بالإنسان تعلقاً مبـاشراً ، فمن خصـائص الأرض وهى من الطين الذى خُلِق منه الإنسـان ، فهى فى

الحقيقـة أمه الأولى - فإذا مات لا يسعه إلا أحضـان أمه حين يتخلى عنه أقـرب الـناس إليـه ، وألصق النـاس به ، عندها تسـتـقـبله الأم وتحتويه وتستر عليه كُلَّ ما يسوؤه .

ومن خـصائص الأرض أنهـا تمتص فـضلات الإنسـان والحيـوان ومخـلَّفاته وتُحـوِّلها بقـدرة الله إلى مُخـصِّب تزدهر به المـزروعات ، ويزيد به المحصول ، وفى الريف يحـملون رَوَثَ الحيوانات ذا الرائحة الكريهة إلى الـحقول ، فـإذا به ينبت فيه الوردة الجـميلة الذكـية التى يتشوَّق الإنسان لرائحتها .

إنها عجائب فى الخَلْق ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ، أتذكرون المثل الذى يقول : (فلان يعمل مـن الفسيخ شربات) هكذا قدرة الله التى تخلق الأضداد .

ألاَ ترونْ أن أفضل الفاكـهة نأكلها الآن من الجبل الأصفـر بمصر وهى تُرْوى بماء المجارى .

وبعد أنْ حدَّثنا الحق - تبارك وتعـالى - عن هذه المظاهر العامة التى يحتـاجها كل الخلق فـى السماء والأرض والجـبال والمطر .. الخ يُحدِّثنا سبـحانه عن مسائل خـاصة يحتاجهـا إنسان دون آخر ، وفى وقت دون آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ (١) إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(يجيب) الإجـابة هى تحقيق المطلوب لداعيـه ، والمضطر : هو

(١) قال ابن عـباس : هو ذو الضـرورة المجـهود . وقال السـدى : الذى لا حول له ولا قـوة . وقال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون الله . [ذكرها القرطبى فى تفسيره (٧ / ٥١٠٧)] .

الذى استنفد الأسـباب ، وأخذ بها فلم تُجْد معـه ، فليس أمامه إلا أنْ يترك الأسباب إلى المسبِّب سبحانه فيلجأ إليه ؛ ذلك لأن الخالق - عز وجل - قبل أنْ يخلق الإنسـان خلق له مُقوِّمـات حياته وضـروريـاتها وسخَّرها لخدمته .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يـا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »

ثم خلق الله لك الطاقـة التى تستطيع أن تُسـخِّر بها هذه الأشـياء وضـمن لك القوت الـضرورى من مـاء ونبـات ، فإنْ أردتَ أنْ تُرفِّـه حيـاتك فتحـرك فى الحيـاة بالأسباب المـخلوقة لله ، وبالطاقـة الفاعلة فيك ، وفكِّر كيف ترتقى وتُثرى حركة الحياة من حولك .

فالماء الذى ينساب فى داخل البيت حين تفتح الصنبور ، والضوء الذى ينبعث بمجرد أن تضغط على زر الكهرباء ، والسيارة التى تنقلك فى بضع دقـائق .. كلها ارتقاءات فى حـركة حـياة الناس لمـا أعملوا عقولهم فيما أعطاهم الله من مادة وعقل وفكر وأسباب ، وهذه كلها يد الله الممدودة لعباده ، والتى لا ينبغى لنا ردّها .

فإذا مـا حاولتَ ولم تفلح ، ولم تثمـر معك الأسـبـاب ، فعليك أنْ تلجأ مباشرة إلى المسبِّب سبحانه ، لأنه خالقك والمتكفِّل بك .

واقرأ قـوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس] ويا ليته سـاعةَ دعا ربه ولجأ إليه فاسـتجاب له يجعل له عند ربه رَجْعة ، ويتوقع أنْ يصـيبه الضُّر مرة أخرى ؛ لكن إنْ كشف الله عنه سرعان ما يعود كما كان .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ (٦٢)﴾ [النمل] فالمضطر إذن لابدَّ أنْ يُجيبه الله ، فمَنْ قال : دعوتُ فلم يُستجب لى . فاعلم أنه غير مضطر ، فليست كل ضائقة تمرُّ بالعبد تُعَدُّ من قبيل الاضطرار ، كالذى يدعو الله أن يسكن فى مسكن أفضل مما هو فيه ، أو براتب ودَخْل أوفر مما يأخذه .. الخ ، كلها مسائل لا اضطرارَ فيها ، وربما علم الله أنها الأفضل لك ، ولو زادك عن هذا القدر طغيتَ وتكبرتَ .

كما قال الحق سبحانه وتعالى :﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

فلقد طلبتَ الخير من وجهة نظرك ، وربُّك يعلم أنه لا خيرَ فيه ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾ [الإسراء]

فربُّك يُصحِّح لك هذا الخطأ فى فهمك للمسائل فيقول لك : سأحقق لك الخير ، لكن بطريقة أخرى أنسب من هذه ، فلو أجبتُك إلى ما تريد لحدث مَا لا تُحمد عقباه ، وكأن الله - عز وجل - وهو ربُّنا والمتولِّى أمرنا يجعل على دعائنا (كنترول) ولو كان الله سبحانه موظفاً يلبى لكل منّا طلبه ما استحق أن يكون إلهاً - حاشا لله .

فالإنسان من طبيعته العجلة والتسرع ، فلا بُدَّ للرب أن يتدخل فى أقدار عبده بما يصلحه ، وأنْ يختار له ما يناسبه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بعواقب الأشياء وبوقتها المناسب ، ولكل شىء عنده تعالى موعد وميلاد .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ..(١١)﴾ [يونس]

ألاَ ترى بعض الأمهات تحب الواحدة ولدها وتشفق عليه ، فإنْ عصاها فى شىء أو ضايقها تقول رافعةً يديها إلى السماء (إلهى اشرب

نارك) أو (إلهى أعمى ولا أشوفك) فكيف لو أجاب الله هذه الحمقاء ؟

إذن : من رحمته تعالى بنا أنْ يختار لنا ما يُصلحنا من الدعاء ، ويُعافينا من الحمق والعجلة .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ (٦٢) ﴾ [النمل] فكما أنه لا يجيب المضطر إلا الله لا يكشف السوء إلا الله ، ولو كان هناك إله آخر يجيب المضطر ويكشف السوء لتوجَّه الناسُ إليه بالدعاء ، لكن حينما يُصاب المرء لا يقول إلا يا رب ، ولا يجد غير الله يلجأ إليه لأنه لن يغشَّ نفسه فى حال الضائقة أو المصيبة التى ألمت به .

وقد مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بحلاق الصحة فى الماضى ، وكان يقوم بعمل الطبيب الآن ، فلما أنشئت كلية الطب وتخرَّج فيها أحد أبناء القرية اتجهتْ الأنظار إليه ، فكان الحلاق يذمُّ فى الطب والأطباء ، وأنهم لا خبرةَ لديهم لتبقى له مكانته بين أهل القرية ، لكن لما مرض ابن الحلاق ماذا فعل ؟ إنْ غشَّ الناس فلن يغشَّ نفسه : أخذ الولد فى ظلام الليل ولفّه فى البطانية ، وذهب به إلى (الدكتور) الجديد .

لذلك يقول كل مضطر وكل مَنْ أصابه سوء : يا رب يا رب حتى غير المؤمن لا بُدَّ أن يقولها ، ولا بُدَّ أنْ يتجه بعينه وقلبه إلى السماء إلى الإله الحق ، فالوقت جدّ لا مساومة فيه .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ .. (٦٢) ﴾ [النمل] أى : يخلفُ بعضكم بعضاً فيها ، كما قال : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٥) ﴾ [النور]

فهل يملك هذه المسائل إلا الله : ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ (٦٢) ﴾ [النمل] والاستفهام هنا ينكر وجودَ إله غير الله يفعل هذا ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل] يعنى : لو تفكرتُم وتذكرتُم لعرفتم أنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾

هذه أيضاً من الأمور الخاصة التى تخصُّ بعض الناس دون بعض ، وكانت قبل تقدُّم العلم ، حيث كانت النجوم هى العلامات التى يهتدى بها الملاحون فى البحر والمسافرون فى البر ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

وقد برع فى علوم الفلك والنجوم وفى علوم البحار علماء من العرب وضَعُوا أسساً لهذه العلوم ، لا عن علم عندهم ، إنما عن مشاهدة لظواهر الكون ، وتوفيق وهداية من الله عز وجل .

وحين نتأمل ارتقاءات الإنسان فى الحياة نجد أنها نتيجة مشاهدة حدثتْ صدفة ، أو حتى بطريق الخطأ ، وإلا فكيف اهتدى الإنسان إلى تخمير العجين ليخرج الخبز على هذه الصورة وبهذا الطعم ؟ لذلك يُسمُّون العجين : فطير وهو المبلط الذى لم يتخمر ، وخمير وهو الذى تخمَّر وارتفع قليلاً وتخلَّله الهواء .

وقد نقلوا هذا المعنى للرأى ، يقولون : فلان رأيه فطير يعنى : سطحى متعجل ، وفكرة مختمرة يعنى : مدروسة بتأنٍّ ، ومنه الفطْرة يعنى الشىء حين يكون على طبيعته .

وربما اكتشفتْ إحدى النساء مسألة الخمير هذه نتيجة خطأ أو مصادفة حين عجنتْ العجين ، وتأخرت فى خَبْزه حتى خمر ، فلما